

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ..

أما بعد.. فَإِنَّ قِصَّةَ نَبِيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِصَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلغَايَةِ، وَهِيَ مُضْرِبٌ مِثْلٌ فِي كَمَالِ الصَّبْرِ وَتَحْقِيقِ الْعِبَادِيَّةِ؛ الصَّبْرُ بِأَنْوَاعِهِ الثَّلَاثَةِ: عَلَى طَاعَةٍ، وَعَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَعَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّمَةِ، وَتَحْقِيقِ تَقْوَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- بِفِعْلِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي.

ولقد كان عليه صلوات الله وسلامه محققاً لذلك الأمر، أتمَّ التَّحْقِيقَ، فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةَ لَهُ وَالْمَالِ الرَّشِيدَ، وَلِهَذَا قَالَ لِأَخُوْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠] لِمَا قَالُوا لَهُ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، قَالَ: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ فكان متقياً لله عزَّ وجلَّ صابراً.

ومن عظيم صبره: صبره عما نهى اللهُ ﷻ عنه من حرام وفاحشة وآثام رُغم كثرة الدواعي وتنوع المغريات إلا أن الله عصمه وصرف عنه السوء والفحشاء، وكان من عباد الله المخلصين.

كان إذ ذاك عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَشَدِّهِ وَقْوَتِهِ وَكَانَ مُوفُورَ الْجَمَالِ -

أَوْ قِي سَطَرَ الْحَسَنَ -، حَتَّى إِنَّ النَّسُوءَ فِي الْمَدِينَةِ لَمَّا خَرَجَ عَلَيْهِنَّ ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ مِمَّا أَوْتِيَهُ مِنْ حَسَنِ وَأَعْطِيهِ مِنْ جَمَالِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالتِّي دَعَتُهُ إِلَى نَفْسِهَا امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وَهِيَ امْرَأَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَلِهَا مَكَانَةٌ وَمَنْزَلَةٌ وَذَاتُ مَالٍ، فَمِثْلُهَا لَوْ طَاوَعَهَا الْمَطَاوِعُ حَصَّلَ مِنْ طَرِيقِهَا أُمُورًا كَثِيرَةً يُطْمَعُ فِيهَا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمُغْرِيَاتِ الدُّنْيَا وَفِتَنِ الدُّنْيَا.

ثم إنَّهَا إِضَافَةٌ إِلَى ذَلِكَ قَدْ تَهَيَّأَتْ لَهُ وَاسْتَعَدَّتْ تَرْبِيَّتَنَا وَتَجَمُّلاً وَتَعَطُّراً؛ مُحَسِّنَاتٍ إِضَافَةٌ إِلَى حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا.

وَإِضَافَةٌ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهَا أَيْضًا هَيَّأَتْ الْمَكَانَ وَأَغْلَقَتْ الْأَبْوَابَ.

ثم أَيْضًا إِضَافَةٌ إِلَى ذَلِكَ دَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ غَرِيبًا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَقُولُونَ عَادَةً: الْإِنْسَانُ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَعِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُونَهُ لَا يَتَخَوَّفُ مِمَّا يَتَخَوَّفُ مِنْهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ فِي بَلَدِهِ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ. وَلِهَذَا يَقُولُونَ: يَا غَرِيبَ كُنْ أَدِيبًا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْبَلَدِ الَّذِي هُوَ غَرِيبٌ فِيهِ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ يَتَقَلَّلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَابِ إِلَّا إِنْ سَلَّمَهُ اللَّهُ ﷻ.

وَإِضَافَةٌ إِلَى مَا تَقَدَّمَ أَيْضًا لَمْ تَكْتَفِ مَعَهُ بِالْإِغْرَاءِ عَلَى وَجْهِ التَّرْغِيبِ؛ بَلْ لَمَّا تَمَنَّعَ وَتَأْتَبَى لَجَأَتْ إِلَى الْإِغْرَاءِ عَلَى

وَجْهِ التَّرْهِيْبِ وَالتَّهْدِيدِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ تَهْدِيدُهُ بِالسَّجْنِ وَاتِّهَامِهِ هُوَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرَادَ ذَلِكَ.

وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي وَالْمُغْرِيَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرْغِيْبَاتِ قَالَ كَلِمَةً عَظِيمَةً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ وَاللَّهُ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا، مَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمَ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِهَا، وَأَنْ يَقُولَ كُلَّمَا ثَارَتْ فِتْنَةٌ أَوْ هَبَّتْ رِيَّاحُ شَهْوَةٍ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ، رَبِّي﴾ كَلَامٌ عَظِيمٌ يَنْبَغُ مِنْ قَلْبِ مُؤْمِنٍ، قَلْبِ صَادِقٍ، قَلْبِ مُخْبِتٍ، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ، رَبِّي﴾ أَحْسَنَ مَثْوَى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾ مَاذَا يَرْجُو مَنْ يَظْلَمُ؟!، أَيْ خَيْرٌ يَرْجُوهُ مَنْ يَظْلَمُ؟! أَيْ لَذَّةٌ يَجْنِيهَا مَنْ يَظْلَمُ؟! لَذَّةُ الْفَاحِشَةِ فِي غَيْرِ مَا أَبَاحَ اللَّهُ ظَلْمَ عَظِيمٍ؛ لَكِنْ لَا يَجْنِي مِنْهَا صَاحِبُهَا إِلَّا خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَعَقُوبَةٌ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا * مِنَ الْحَرَامِ وَيَقْبَى الْخِزْيَ وَالْعَارَ وَتَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ مِنْ مَغْبَتِهَا * لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارَ وَلَمْ يَقِفْ الْأَمْرُ فِي الْإِغْرَاءِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ؛ بَلْ إِنَّ النَّسُوءَ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ ذَوَاتِ الْوَجَاهَةِ وَالْجَمَالِ وَالْحَسَنِ وَالْقُرْبِ مِنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ أَيْضًا اشْتَرَكْنَ مَعَهَا فِي هَذَا لَمَّا رَأَى يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ

هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ فَلَجَأَ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا فِيهِ دَرَسٌ عَظِيمٌ جَدًّا فِي الْفِتَنِ وَالِدَّوَاعِي - وَمَا أَكْثَرُهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ - أَنْ

يلجأ إلى الله ﷻ أن يصرف عنه.

قال ﷺ: ﴿رَبِّ السَّجْنِ﴾ لَأَنَّهُ فِيهِ تَهْدِيدُ الْآنِ، وَصَلَ الْأَمْرَ إِلَى مَرَحَلَةِ التَّهْدِيدِ إِنْ لَمْ يَطَاوِعْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وَأَيْضًا النِّسَاءَ، قَالَ: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ أَنْ أُسَجَّنَ وَأُجْعَلَ فِي غُرْفَةٍ مَغْلُقًا عَلَيَّ الْأَبْوَابِ؛ لَا أَرَى الشَّمْسَ، لَا أَرَى الْهَوَاءَ، لَا أَرَى النَّاسَ، لَا أَرَى إِلَى آخِرِهِ، ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ اللهُ أَكْبَرُ، وَيَدْخُلُ نَبِيُّ اللهِ يَوْسُفَ ﷺ السَّجْنَ؛ لِأَنَّهُ مَمْتَنِعٌ عَنِ الْحَرَامِ، وَكَمْ مِنْ أَنَاسٍ يَدْخُلُونَ السَّجْنَ بِفِعْلِ الْحَرَامِ!.

قال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ وَانظُرِ اللَّجُوءَ إِلَى اللهِ ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَاهِبِينَ﴾ (٣٣) هَذَا لَجُوءٌ إِلَى اللهِ ﷻ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، وَتَأْتِي الْإِجَابَةُ فَوْرًا - بِحَرْفِ الْفَاءِ - ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٤) ﷻ مِنْ صَدَقِ اللَّجُوءُ إِلَى اللهِ ﷻ وَلَوْ كَانَ فِي أَحْلَكَ مَوْقِفٍ وَأَشَدَّ فِتْنَةٍ لَا يَضِيعُهُ اللهُ وَلَا يَرُدُّ ﷻ دَعَاءَهُ وَمَنَاجَاتَهُ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٤) ﷻ وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّجْنَ مَظْلُومًا ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾ (٣٥) ﷻ وَلَكِنْ اللهُ ﷻ مَعَ هَذِهِ الْإِبْتِلَاءَاتِ بِأَنْوَاعِهَا كُلُّهَا تَلْقَاهَا بِالصَّبْرِ وَالْإِحْتِسَابِ وَانْتِهَازِ كُلِّ مَوْقِفٍ بِمَا يَنَاسِبُهُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ

ﷻ، فَلَمَّا دَخَلَ إِلَى السَّجْنِ اسْتَغَلَ وَجُودَهُ فِي السَّجْنِ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِهِ، وَتَعْلِيمِ دِينِهِ ﷻ وَمَعَامَلَةِ النَّاسِ بِالْحَسَنِ وَالرَّفْقِ وَالْمَعَامَلَةِ الطَّيِّبَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

فالشَّاهِدُ أَنَّ قِصَّةَ يَوْسُفَ ﷻ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ، وَكَانَ عَمْرُ ابْنِ الْخَطَّابِ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قِرَاءَةِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، حَتَّى إِنْ أَحَدَ التَّابِعِينَ قَالَ: إِنَّمَا حَفِظْتَهَا مِنْ عَمْرٍ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ. كَانَ يَكْثُرُ مِنْ قِرَاءَتِهَا، يَقْرَأُهَا فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ كَامِلَةً، وَلَوْ قَرَأَهَا إِمَامٌ فِي زَمَانِنَا كَامِلَةً فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ لَقَامَتِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَقْعُدَ.

جزاكم الله خير الجزاء ووفقنا لحسن الانتفاع بآيات الله وعظاته وعبره وبيئاته، وأصلح لنا جميعاً شأننا كلّه إنّه تبارك وتعالى سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وحسبنا ونعم الوكيل.

اللَّهُمَّ يَا رَبَّنَا يَا مَوْلَانَا يَا كَرِيمَ اجْمَعْنَا بِنَبِيِّ اللهِ يَوْسُفَ وَبَيْنَنَا مُحَمَّدًا، وَجَمِيعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



صبر يوسف

كلمة

للشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله

النسخة الإلكترونية الأولى

